رائد الثورة وقائد التحرير

كان الإمام (عبد الحميد بن باديس) هو العقبة الكبرى في وجه الاستعمار، والزعيم الوطني الأكبر، الذي يقود ويدعم حركة التحرير الجزائرية، بل كان هو النواة التي أفرزت معاني الوطنية، وأحييت روح الجهاد والنضال في الشعب الجزائري.

ولد ابن باديس في ٤ ديسمبر ١٨٨٩م في قسنطينة، عاصمة الشرق الجزائري، وتعلم مبادئ اللغة العربية وحفظ القرآن، وأرسله والده في عام ١٩٠٨م إلى تونس لتحصيل العلم في جامع الزيتونة العريق، ثم نجح في امتحان شهادة التطويع (العالمية) وكان الأول على دفعته، وعاد بعد ذلك إلى الجزائر للتدريس والاشتغال بالإصلاح، وفي عام ١٩١٣م، سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والاتصال بعلماء الشرق، ثم رجع إلى الجزائر لخدمة دينه ووطنه.

أدرك الرجل أن الطريق لمقاومة هذا المحتل الغاشم، إنما يكون بالتربية والتأهيل والتعليم، وإيجاد جيل جديد يحمل هموم الأمة ويتبنى قضاياها، ويعرف كيف يناضل في سبيلها، ويفدي وطنه بروحه، وتمثل المشروع الإصلاحي عنده في تربية النشء، باعتباره وسيلة لتحضير مستقبل الجزائر، وتوعية الجزائريين ليقفوا سدًا منيعًا لسياسة الاندماج والاستيطان التي ينتهجها المحتل الفرنسي.

لقد أحيا ابن باديس الإسلام في الجزائر، ونشر اللغة العربية وعزز الهوية الإسلامية، ونمى الروح الوطنية، وزرع بزور الحرية في نفوس الجزائريين.. وأدرك أن السبيل الأمثل لقيام وطن حر مستقل، هو مقاومة الحركة التغريبية التي ينتهجها المستعمر لمحو هوية الجزائر الإسلامية،

بتعليم الصبية والفتية، ومقاومة الجهل والأمية والعودة للإسلام الأصيل، ووأد البدع والخرافات التي انتشرت على يد الجهال من أتباع الطرق الصوفية، فعمل مجتهدًا على نشر الكتاتيب والمدارس في كل مكان يستطيع الوصول إليه في الجزائر، كما قام كذلك بباع كبير، وجهاد طويل في ميدان الصحافة، وكان على يقين بالدور الفعال الذي تُمارسه الصحافة في توعية الجماهير ، والتأثير في أصحاب القرار، فأسس مطبعة وأصدر صحيفة المنتقد، وجعل شعارها (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وأصبحت هذه الصحيفة منبرًا لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناةً ينتقد منها الاستعمار وسياساته، وصوتًا ينصر عبره قضايا المسلمين الكبرى، كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ومساندة الشعب الليبي.

وأمام هذه الأهداف الوطنية، لم يكن الاستعمار الماكر غافلاً عن مقاصد صاحبها ومراميه التحررية، فسارع إلى مصادرة المنتقد وغلقها، ولكن ابن باديس لم يقف مكتوفًا يائسًا، وإنما سارع إلى إصدار مجلة أخرى تحت عنوان الشهاب، والتي قامت بدور عظيم وجليل في التعليم والتوعية، وإحياء روح الإسلام في الجزائر، واستمرت حتى عام ١٩٣٩م، وأغلقت هي الأخرى بضغط من المحتل.

قاوم ابن باديس المخططات الاستعمارية ميدانيًا وفكريًا، ففي عام ١٩٣٠م، ندد بالحفلات الصاخبة التي قام بها المحتل في العاصمة الجزائرية، بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، واعتبر ذلك إهانة للجزائريين.

ثم كانت خطوته الفاعلة حينما أسس جمعية العلماء الجزائريين عام ١٩٣٢م، والتي كانت تهدف إلى جمع علماء الجزائر تحت لواء واحد، وكلمة واحدة، وموقف واحد، حتى يشكلوا صوتًا قويًا يواجهون به المتحل الغشوم وسياساته الخرقاء، ويتحملون معه عبء الكفاح الوطني، وتعليم

الجزائريين وإماطة الجهالة، وإحياء الروح الإسلامية في النفوس، وبالفعل استطاعت هذه الجمعية أن تُنشي العشرات من المدارس والكتاتيب في شتى أنحاء البلاد، وإصدار العديد من الصحف والمجلات المتتابعة، التي تهدف إلى توعية الشعب وتثقيفه، لكن فرنسا حاربت جمعية العلماء، ووضعت في مسيرتها الدعوية كثيرًا من العقبات، ففي ١٦ فبراير ١٩٣٣م، نشر الوالي العام للجزائر بيانًا هاجم فيه جمعية العلماء، وأصدر قرارًا بمنع العلماء من التدريس والإرشاد في المساجد دون رخصة من السلطة الفرنسية، وضيقوا على نشاطات الجمعية ونواديها الثقافية والرياضية بقوانين أصدروها، وأغلقوا مدارسها، واعتقلوا كثير من العلماء بحجة عدم امتلاك الرخصة.

ولم يكن ابن باديس، هذا العالم الواعي ورائد التحرير الوطني، بمعزل عن قضايا الأمة وشؤون وطنه، كما هو حال الكثير من علماء الدين الذين يرون مجرد الحديث في السياسة منكر وزور، ويعدونه انحرافًا عن الدين، بل كان ابن باديس زعيم الإصلاح الأول، ورائد التحرير الوطني، والمنبع الذي تولدت منه ثورة الجزائريين التي نالوا بها تحريرهم، فهو من ربى الشعب، وأحيا الهوية، وأعد أجيالاً من المناضلين، الذين قاوموا المحتلين و أقضّوا مضاجعهم.. كان رحمه الله يجمع بين العلم والإصلاح والسياسة، وهي الصورة الصحيحة لعالم الدين الذي يعرف مهامه وغايته ومسؤوليته تجاه أمته ووطنه وقضاياه، فقد قال يومًا: (لابد من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق)

ولعمري فهذا هو الوعي، وهذا هو العلم، وهذا هو الإسلام، الذي يرفض دعاوى الجبناء ممن ينتسبون للعلم، حين يزعمون أن دورهم محصور مقصور في تبليغ العلم فقط، وأن رسالتهم هي الهروب من أي مواجهة، وعدم إقحام أنفسهم فيما يجلب لهم أي ضرر أو هلكة للنفس.. لقد أوشك ابن

باديس أن يعلن ثورة عامة على الفرنسيين في أوقات ضعفهم في الحرب العالمية الثانية، لولا أنه مرض في هذا الوقت مرض الوفاة، ورحل عن الدنيا عام (١٩٤٠م) يعلن الثورة بعدما ربى علم وفهم وأعد.

لقد أدرك ابن باديس مشكلة الأمة المسلمة، وأكبر أدوائها، وهو كما قلنا دومًا وأشرنا وكتبنا: خلو الساحة من القيادة المؤمنة، والريادة الربانية العاملة الصالحة، فقد كان يقول: "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب، إذا صلح، صلح الجسد كلّه، وإذا فسد.. فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من علمه لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم ونعني بالتعليم؛ التعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه"[١]

وعلى جانب آخر.. أدرك ابن باديس أهمية المسجد في نشأة وتربية من يريد تخريجهم من أجيال واعية مناضلة، وأثره كذلك في تشكيل وتوعية عقول الجزائريين، فعمل على ضرورة إحياء المساجد وربط الناس بها.. وقام بجهد كبير في إرسال الطلبة للتعليم في المعاهد العلمية الدينية الكبرى في الأزهر والزيتونة ودمشق، حتى يكونوا قيادات المستقبل التي تربط الشعب بدينه وهويته التي يريد الاستعمار مسخها والقضاء عليها، وكان حفاوته شديدة بهؤلاء الطلاب والتلاميذ، حينما يتخرجون ويحصلون على شهاداتهم،

---

١ - آثار بن باديس - المفكر الجزائري الدكتور عمار طيبي

لأنه يشعر تجاهم أنهم طوق النجاة والأمل، الذي سيحقق غايته في إنقاذ وطنه.

يقول أحد تلاميذه وهو (محمد الصالح بن عتيق) الذي تخرج من جامع الزيتونة في منتصف الثلاثينات: (عُدت إلى الجزائر أحمل الشهادة وفرح بذلك أهلي، ولكن فرح أستاذنا العظيم كان أكبر، فقد استقبلني مع بعض الإخوان الذين فازوا في امتحان الشهادة استقبالاً رائعًا، و أقام لنا حفلاً مضيفًا، وأهاب بنا إلى القيام بالدعوة الإصلاحية، وفي الجهة التي نكون بها، ولم يكتفِ رحمه الله بهذا الفضل، بل نشر أسماءنا في مجلة الشهاب تحت عنوان "نجوم الجزائر" تشجيعًا لنا وتعريفًا للأمة بنا.

وتوفي ابن باديس في ١٦ نيسان ١٩٤٠م، وحضر جنازته حوالي ٥٠ ألف شخص، رغم كل العراقيل التي وضعتها سلطة الاحتلال.. وهناك بعض الاتهامات التي وجهت للسلطة الفرنسية باغتيال الإمام ابن باديس بالسم.